

سلسلة مواقف مضيئة في تاريخ الإسلام

الحلقة الثامنة عشرة

تخطيم الأصنام: كيف تتحرر الأمة من قيود الجاهلية المعاصرة؟

في فتح مكة، لم يقتصر الانتصار على السيطرة العسكرية، بل كان إعلاناً جذرياً لانتهاج مرحلة الجاهلية وإعلان سيادة الإسلام الكامل. عندما دخل النبي ﷺ مكة وكُسرت الأصنام داخل الكعبة، لم يكن مجرد فعل رمزي، بل كان رسالة صريحة لكل المسلمين: لا بقاء للباطل، ولا مكان للرموز التي تُعيق حرية الفكر والسيادة الحقيقية للدولة الإسلامية. هذا الحدث يقدم درساً مباشراً لأي أمة تبحث عن تغيير جذري، لا يمكن بناء مجتمع على أساس صحيح مع استمرار سيطرة رموز الانحراف على عقول الناس.

الدرس الأول واضح، الانتباه إلى أن الفتح لا يكتمل مع بقاء الرموز القديمة. في مكة، كانت الأصنام تمثل أكثر من مجرد أوثان، كانت رمزاً لنظام قيم كامل قائم على الجاهلية، على الفساد، على استغلال الناس وسلب حقوقهم. لم يكتفِ النبي ﷺ بدخول المدينة، بل قضى على هذه الرموز، لأنه فهم أن أي سلطة جديدة لا تستطيع أن تثبت إذا لم تقضِ على الأطر الفكرية القديمة التي تُقاوم التغيير. في واقعنا اليوم نعاني من بقايا الأصنام المعاصرة، سواء أكانت في أشكال فساد سياسي، أو سيطرة ثقافية، أو نفوذ أجنبي يتحكم في وسائل الإعلام والتعليم والاقتصاد. ما دام هذا الوجود قائماً، ستظل أي إصلاحات سطحية بلا جدوى، لأن العقل لا يزال مقيداً بأفكار قديمة تُغذي الانقسام والضعف.

الدرس الثاني الاهتمام بضرورة كسر الرموز الفكرية، لا فقط السيطرة على الأرض. في مكة، لم يكن كسر الأصنام مجرد حيلة رمزية، بل إعلان سيادة فكرية كاملة. القضاء على الأصنام حرر الناس من الخضوع للأوهام، ومن تبعية قيادات ووجوه فرضت عليها الأعراف القديمة. وهنا تظهر أهمية فهم أن التغيير الحقيقي لا يكون بالسيطرة السياسية وحدها، بل بإنهاء أي مظاهر عقلية أو اجتماعية تُبقي الأمة رهينة للجهل أو للخضوع للنظم الاستعمارية والرأسمالية الحديثة. ففي كثير من بلاد الإسلام اليوم، نرى أن السياسات الاقتصادية والتعليمية والثقافية تُدار وفق أطر خارجية، أو متأثرة بقيم فردية ومصالح نخبوية، فتُبقي الأمة ضعيفة ومرتبكة في تحديد هويتها ومسارها.

الدرس الثالث: الرغبة في التغيير الكامل، وعدم الاكتفاء بالمظاهر. أي مشروع تغيير يُبقي رموز الانحراف حيّة لن يغيّر شيئاً. حتى لو تم استبدال حكومة فاسدة، أو تبني قوانين جديدة، فإن بقاء الأصنام الفكرية كالأعراف التي تسمح بالفساد، والخوف من مواجهة القوى العالمية، والاعتماد على الاقتصاد الغربي حتماً سيحول كل الانتصارات إلى صدى بلا قوة حقيقية. فتح مكة يعلم أن التغيير يجب أن يكون جذرياً؛ العقيدة، الفكر، المؤسسات، والقيم كلها يجب أن تُصاغ وفق شرع الله لتكون أساساً لنهضة الأمة.

هذه ليست قصة تاريخية نرويها لنستمتع بها، بل طريق لكل مسلم يسعى لاستعادة كرامة الأمة. فكّر: ما هي الأصنام المعاصرة التي ما زالت تحكم عقولنا؟ هل هي الممارسات الاقتصادية التي تُبقي الأمة مستهلكة ومستسلمة للدائنين؟ هل هي السياسات التعليمية والثقافية التي تزرع قيماً غريبة عن الإسلام؟ هل هي الاعتماد على الغرب في صناعة القرار السياسي؟ إن تحديد هذه الأصنام الحديثة هو الخطوة الأولى لتحطيمها، كما تحطمت أصنام مكة، وضمان أن أي تغيير في الأمة لن يكون مجرد تحول شكلي، بل انتصار حقيقي للسيادة والعدالة.

إن تحطيم الأصنام هو درس خالد فلا إصلاح بلا إزالة القيود الفكرية والاجتماعية، ولا سيادة حقيقية بلا تحرر من الرموز القديمة التي تعيق مشروع الأمة. فتح مكة لم يكن مجرد انتصار عسكري، بل فتح للعقول والقلوب، ودعوة لكل مسلم اليوم أن يُفكّر بعمق: ما هي الأصنام التي ما زالت تعيق حريته، وكيف يمكن القضاء عليها لبناء مجتمع قوي، يطبق الإسلام ويستعيد كرامة الأمة؟

المكتب الإعلامي لحزب التحرير

في ولاية مصر